Al-Daleel
مؤسسة الدليل للدراسات والبحوث العقدية
Al-Daleel Institution for Doctrinal Studies

The Existential Status of Women Between Islamic and Western Thought: A Critical Analytical Study

Adnan Hashim
Assistant Professor of Islamic Jurisprudence and Knowledge, Al-Mustafa International University, Iraq.
E-mail: a.alhusseini@aldaleel-inst.com

Abstract

The topic of women and their existential status has received significant attention from thinkers, philosophers, and researchers, both ancient and modern, in the East and the West. It has been a subject of contention among proponents of various epistemological approaches. Philosophers, mystics, and religious figures have each contributed their perspectives, formulating theories and ideas aligned with their respective methodologies. This article explores some of these foundational perspectives, discussing the Christian philosophical heritage and its stance on women, shaped by its reliance on biblical texts. Subsequently, the article engages with the Islamic perspective, seeking to answer questions about the true status of women and to establish a coherent theoretical framework that aligns with practical mechanisms capable of translating into daily behavioral realities. The study explicitly deals with the issue of gender equality in existence, intellectual and cognitive capabilities, and political participation. It also highlights the reasons behind the perpetuation of a condescending view of women. The method employed combines descriptive and analytical approaches while incorporating critical analysis of the views discussed.

Keywords: Women, Men, Equality, Existential Status, Islamic Thought, Western Thought.

Al-Daleel، 2024، Vol. 7، No. 26، PP .122-145

Received: 03/09/2024; Accepted: 10/10/2024

Publisher: Al-Daleel Institution for Studies and Research

©the author(s)

مؤسسة الدليل
لدراسات والبحوث العقدية
Al-Daleel Institution
for Doctrinal Studies
Al-Daleel الدليل

المكانة الوجودية للمرأة بين الفكر الإسلامي والفكر الغربي.. دراسة تحليلية نقدية

عدنان هاشم
أستاذ مساعد في الفقه والمعارف الإسلامية، جامعة المصطفى العالمية، العراق.
البريد الإلكتروني: a.alhusseini@aldaleel-inst.com

الخلاصة

أخذ موضوع المرأة ومكانتها الوجودية اهتمامًا بارزًا في أعمال المفكّرين والفلاسفة والباحثين من القدماء والمحدثين، سواءٌ في الشرق أم في الغرب، وكان مثارًا للاختلاف بين أصحاب المناهج المعرفية المختلفة، فكلٌّ من الفلاسفة والعرفاء ورجال الدين أدلوا بدلائهم وبلوروا نظرياتٍ وأفكارًا متّسقةً مع مناهجهم. والمقال يتطرّق إلى بعض هذه الآراء الأساسية، مع التعريج على التراث الفلسفي المسيحي ومدى تأثره بالكتاب المقدّس في نظرته للمرأة، ثمّ كان لا بدّ من طرح إجابة الفكر الاسلامي على سؤال حقيقة مكانة المرأة وضرورة تحديد نظري متناسق مع آليات عملية تتحوّل إلى واقع معاش سلوكي يومي في كلّ الاتّجاهات. وأجاب المقال بشكل صريح على قضيّة مساواة المرأة للرجل في الوجود والقابليات المعرفية والذهنية والمشاركة السياسية، مشيرًا إلى أسباب النظرة الاستعلائية على المرأة، وكلّ ذلك وفق المنهج الوصفي تارةً والتحليلي تارةً أخرى، مع تفعيل المنهج النقدي للآراء.

الكلمات المفتاحية: المرأة، الرجل، المساواة، المكانة الوجودية، الفكر الإسلامي، الفكر الغربي.

مجلّة الدليل، 2024، السنة 7، العدد 26، ص. 122 ـ 145
استلام: 2024/09/03، القبول: 2024/10/10
الناشر: مؤسّسة الدليل للدراسات والبحوث
© المؤلّف

المقدّمة

إنّ المركزيـة الذكوريـة تفرض نفسـها في الذهنيـة العامّة للعلاقات بـين الرجل والمرأة مـن خلال البناء البيولـوجي لجسـمهما، وأصبـح ذلـك جـزءًا أوّليًّـا في التربيـة الاجتماعيـة، وأضحـت العلاقة الجنسـية تعبـيرًا عـن الرغبـة في الهيمنـة. وكـم فـرق بـين هـذا الفهم الحـسّي للعلاقـة بين الجنسـين وبـين الفهم العقـلي والوحيـاني الذي يعـبّر عنـه القـرآن الكريـم بقول البـاري: ﴿**هُـنَّ لِبَـاسٌ لَكُـمْ وَأَنْتُـمْ لِبَاسٌ لَهُـنَّ**﴾ [سورة البقرة: 187]، فنلاحـظ مدى الحميمية في تعبـير اللباس الذي يحمل دلالـة الحماية والاحتضان والحنـان والعطـف مـن كلّ طرف تجاه الطـرف الآخر، فهو تعبير في غايـة الروحانية، وهنـاك دلالة رمزية واضحـة في الابتـداء بالنسـاء أوّلًا في قوله تعـالى: ﴿**هُنَّ**﴾.

إنّ بعـض الفلاسـفة شـاركوا في عمليـة الازدراء بالمـرأة، فلقـد انعكسـت آراء أرسـطو الوجوديـة على المـرأة، ليـس مـن حيـث مرتبتهـا الوجوديـة المتدنّيـة نسـبةً إلى الرجـل فحسـب، بـل وعلى حياتها السياسـية أيضًـا، فلا يحقّ للمرأة ممارسـة السياسـة؛ لأنّ الجانـب العاطفي في المـرأة متغلّب على الجانب العقـلي، وهـذا مـن فعـل الطبيعة الـتي جعلـت الإنـاث ذوات عاطفـة متغلّبة.

إنّ الجنـس والكمـون الشـهواني هـو الذي يحرّك أفـكار بعض الفلاسـفة ورجال الديـن في الغرب نحو المـرأة ووضعهـا في النظـام الإنسـاني العـامّ، وفقًـا لذلـك نسـتطيع معرفة حقيقـة بعض النصـوص التي أطلقهـا بعضهـم. وممّا يسـاعد على ذلك تلك الفكـرة التي تقـول إنّ المرأة أصل الخطيئـة، وهي الفكرة الـتي سـيطرت ولـم تزل تسـيطر على الفكر الديني المسـيحي واليهـودي، بل تأثّـرت بها العقليـة العامّية الإسـلامية أيضًا.

وقـد تطـرّق المقـال إلى دور العرفـاء المسـلمين في بيان مكانة المـرأة في عالـم الوجود، ولا سـيّما أنّهم اعترفـوا لهـا بمقـام الخلافـة الذي يتضمّـن في الأدبيـات الدينية الإسـلامية جميع أبعاد الإنسـان.

وعندمـا نبحـث الفكـر الإسـلامي نجـد الإنصاف لهـا ضمن النصـوص الدينيـة، فالخطـاب الإلهي في القـرآن الكريـم تميّز بصفة الشـمولية والإطـلاق للمخاطب والمكلّـف دون النظر إلى نـوع الجنس.

ولـو مررنا بشـكل سريـع على الآيـات التي تخـصّ جانب التكاليـف الشرعيـة أو الجوانـب العقدية، وقضيّـة الإيمـان أو اجتنـاب الشرور والمعـاصي والجوانب الأخلاقيـة وطرق التكامل الإنسـاني والعروج في مراتـب السـعادة والتمـاس الرضـا الإلـهي، لتبيّن أنّهـا لا تختصّ بالرجـل وحده أو بالمـرأة وحدها.

ومـن خـلال ذلـك نجـد أنّ القـرآن الكريـم ـ وهـو كلام الله ﷻ ـ قـد ردّ بوضـوح وبشـدّة على عقائـد الأمـم السـابقة، وانتقد مـا كانوا يعتقدونه بشـأن المـرأة، وما نتج عـن هذه العقائد من مأسـاة حقيقيـة للمـرأة، وهـذا يدلّ على تقدّم الإسـلام تقدّمًـا واضحًا، ممّا أرجـع المرأة إلى وعيها بإنسـانيتها، وأنّهـا تسـتطيع أن تعـرج نحو الكمـال المفترض للبشرية، سـواء من الناحيـة الدينيـة أو الدنيوية، وهذه

الفـروق بـين الجنسـين مـا هي إلّا إرادة إلهية داخلـة ضمن النظـام الأصلح في الحكمـة الإلهية.

والنقطـة الأساسـية الـتي يركّـز عليهـا المقـال المسـاواة الوجوديـة بـين الرجـل والمـرأة، والقابليات المعرفيـة والذهنيـة، وتفنيـد فرضيـة الاسـتعلاء أو النظرة الاسـتعلائية على المـرأة التي رفضهـا الدين، وإنّ ذلـك يمثّـل مخالفـةً صريحـةً للشريعـة والفكر الإسـلامي.

المبحث الأوّل: المفردات الأساسية في البحث

أوّلًا: المكانة الوجودية

المقصود بالمكانة الوجودية هي ذلك المقام الذي جعله الخالق للمرأة في عالم التكوين: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾ [سورة الحجرات: 13]، فلكلّ مخلوق وضعه المعيّن في نظام الخلقة الإلهية، وكلٌّ منها يؤدّي فيه وظيفته بحسب القدرات والقابليات التي يحتوي عليها، سواءٌ كان إنسانًا أو حيوانًا أو نباتًا أو غير ذلك، ﴿**قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى**﴾ [سورة طه: 50]. ولا شكّ أنّ الهداية نوعان: تكوينية وتشريعية، والتكوينية - والتي هي يهمّنا بحثها في المقام ـ ما به يهتدي كلّ نوعٍ إلى كماله الخاصّ به المتّسق مع غيره، والمكمّل للآخرين على سبيل الفعل والانفعال والتأثّر والتأثير [انظر: الطباطبائي، تفسير الميزان، ج 7، ص 193]، وتتضمّن أيضًا تلك القوانين الطبيعية المتحكّمة بالوجود [انظر: مكارم الشيرازي، ج 1، ص 73]. فهناك مقامان للمرأة: مقام الخلافة الذي تشترك فيه مع الرجل، ومقام الأنوثة المختصّ بها والمتضمّن استحقاقاتٍ نوعيةً ووظيفيةً تشارك فيها الرجل تارةً وتفترق عنه أخرى. والمقال يحمل إيضاحًا لهذين المقامين المعبّرين عن تلك المكانة الوجودية.

ثانيًا: الفكر الإسلامي

إنّ الفكر بشكل عامّ عبارة عن تفاعل بين المدخلات والمخزون من المعلومات، ولم تشر المعاجم اللغوية في تعريفها للفكر سوى أنّه إعمال للخاطر. [ابن منظور، لسان العرب، ج 5، ص 3451]

وهذا لا يعبّر عن المقصود في هذا البحث؛ لأنّ المراد هنا أن يكون للإنسان فاعلية في ما يريد إحضاره إلى الذهن، أي هناك مؤونة وتعمّل من أجل إحضار ذلك الأمر الذي يطلق عليه الفكرة، ثمّ يقوم بإعمال أدوات الفكر؛ حتّى يخرج بنتيجة هي الفكر. فالفكرة قبل إعمال الأدوات والقواعد تكون أوّليةً يشوبها الغموض، أو هي ما يطلق عليها المشكل في المنطق أو المجهول، ونحن عبّرنا بالغموض؛ لأنّها ليست مجهولةً من جميع الأبعاد؛ لأنّ ابن سينا يصرّح بأنّ الإنسان لا يمكن له أن يصل إلى العلم بالشيء الذي يجهله دون معلومات تتطلّب ترتيبًا معيّنًا وصفه بالترتيب الواجب حتّى ينتقل من المجهول إلى المعلوم [انظر: ابن سينا، المنطق، ج 1، ص 3]. ولا بدّ أن تكون عملية التفكير نتاج تفاعل بين مصدر المعلومة والعملية الذهنية، والفكر الإسلامي ناتج الاعتماد على القرآن والسنّة؛ باعتبارهما المصدر المعلوماتي للمفكّر الإسلامي، ثمّ إنّه لا يخفى أنّ كلّ عملية تفكير تخضع لمنهج معرفي ما، والمقصود بالبحث هو الفكر المستند على القرآن والسنّة، مع الأخذ بما يمليه البرهان العقلي.

ثالثًا: الفكر الغربي

حينما يطلق المصطلح التركيبي "الفكر الغربي" فيقصد به ما أنتجه الغرب من أيّام اليونان، وسوف نشير إلى ما أنتجه أرسطو فيما يخصّ موضوع البحث فقط، ثمّ ما صدر عن الفكر الفلسفي المسيحي القديم.

المبحث الثاني: التكامل الوظيفي بين الرجل والمرأة

المطلب الأوّل: الغاية الوظيفية في التغاير الجسدي للرجل والمرأة

إنّ التفكير الحسّي يمثّل نمطًا من أنماط التفكير المعرفي، وعلى الرغم من أهمّيته إلّا أنّه يوفّر جانبًا سطحيًّا من المعرفة، والرؤية الناتجة عن هذا التفكير تفسّر العالم تفسيرًا مادّيًّا بعيدًا عن الميتافيزيقيا، ويحتلّ مستوًى متقدّمًا على مستوى العقلين النظري والعملي في الدراسات التجريبية.

ونمط التفكير الحسّي هو تفكير سطحي عامّي يحتلّ المساحة الأكبر من عقول عوامّ الناس وخواصّهم بدرجات تشكيكية متفاوتة، فيريد الحسّي أن يعرف كلّ شيء بالحسّ، وينظر لكلّ شيء بالحسّ، ويفسّر كلّ شيء تفسيرًا حسّيًّا مادّيًّا، ومنها مجموعة العلاقات الإنسانية ولا سيّما علاقة الرجل بالمرأة. فلقد فسّروا هذه العلاقة على أساس قاعدة الجسد والاختلاف الجسدي، فأضحت العلّة الغائية الإلهية لهذا الاختلاف غائبةً، وحلّت محلّها النظرة الاستعلائية الذكورية، وفسّروا رقّة المرأة ضعفًا، وخشونة الرجل قوّةً جبّارةً استعباديةً. وانعكس هذا الفهم بين القويّ والضعيف على تفسير مجمل الكيان الاجتماعي من أسرة ودولة ونظام سياسي واقتصادي وغير ذلك.

ويعدّ الجسد معيارًا أساسيًّا يكرّس من خلاله النظام الاجتماعي الهيمنة الذكورية، وذلك من خلال التمييز البيولوجي بين الجنسين، أي بين الرجل والمرأة، وبالتحديد بين الجسد الذكوري والجسد الأنثوي، وهذا ما يؤكّده بيار بورديو (Pierre Bourdieu) الذي ذهب إلى أنّ الفارق الجسدي بين المرأة والرجل تحوّل إلى معيار للأفضلية في الحياة العامّة. [محمد بن سباع، نقد الخطاب الذكوري عند بيار بورديو، ص 103]

فالمركزية الذكورية تفرض نفسها في الذهنية العامّة للعلاقات بين الرجل والمرأة من خلال البناء البيولوجي للجسد للطرفين، وأصبح جزءًا أوّليًّا في التربية الاجتماعية، وأضحت العلاقة الجنسية تعبيرًا عن الرغبة في الهيمنة. وثمّة فرق بين هذا الفهم الحسّي للعلاقة بين الجنسين وبين الفهم العقلي والوحياني الذي يعبّر عنه القرآن الكريم بقول الباري: ﴿**هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ**﴾ [سورة البقرة: 187]، فنلاحظ مديات الرقيّ في تعبير اللباس الذي يحمل دلالة الحماية والاحتضان والحنان والعطف من كلّ طرف تجاه الطرف الآخر، فهو تعبير في غاية الروحانية، وهناك دلالة

رمزيـة واضحـة في الابتـداء بالنسـاء أوّلًا في قـوله تعالى: ﴿هُـنَّ﴾، ومعنى ذلـك عدم اقتصـار العلاقة بـين الطرفـين على الجانـب البيولـوجي والجنـسي، بل هي أسـمى من ذلـك بكثير.

والآيـة الأخـرى الـتي تفيض بالفهـم الميتافيزيـقي الغائي الإلـهي: ﴿وَمِـنْ آيَاتِـهِ أَنْ خَلَقَ لَكُـمْ مِنْ أَنْفُسِـكُمْ أَزْوَاجًـا لِتَسْـكُنُوا إِلَيْهَـا وَجَعَـلَ بَيْنَكُـمْ مَـوَدَّةً وَرَحْمَـةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَـاتٍ لِقَـوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [سورة الروم: 21] وهـذه من آيـات الإعجاز الاجتمـاعي والأسري في القرآن، فأشـار إلى أنّ المرأة من نفس الرجـل، والرجـل مـن نفس المـرأة، طالمـا أنّ الخطـاب موجّه لجميـع المؤمنين مـن الرجال والنسـاء، ثمّ اسـتخدم السـكن بما يحمل مـن دلالات الأمن والاطمئنـان الروحي والمـادّي والهدوء النفـسي، ثمّ بيّن القـرآن أنّ هنـاك جعـلًا تكوينيًّـا للمودّة والرحمـة والحبّ والحنـان، وبحسـب السـيّد الطباطبائي فإنّ المـرأة بمـا وهبهـا الله مـن عناصر اللـين والرأفة تكـون العامـل الجوهري في تكويـن المجتمعـات. [انظر: الطباطبـائي، الميـزان في تفسـير القـرآن، ج 4، ص 47]

إنّ الاختـلاف البـدني بـين الجنسـين هو اختـلاف وظيـفي تكويني، غايته سـامية هي بنـاء حضارة الإنسـان الإلـهي الذي يحتاج إلى التكاثـر على الأرض.

المطلب الثاني: الدور الاستخلافي لكلّ من الرجل والمرأة

إنّ الحيـاة على الأرض قائمـة على أسـاس منهـج الاسـتخلاف الإلهي للإنسـان، وهذا الاسـتخلاف انحـصر في الإنسـان؛ لمـا يتضمّنـه من قيـم لا توجد في كائن غـيره، فهناك ما يشـبه العقـد الوجودي بين الخالق والإنسـان. [انظر:الحاجـي، جينيالوجية كينونة الإنسـان الكامـل، ص 148]

إنّ السـؤال الأسـاسي هـو هل الاسـتخلاف منحـصر في الرجـل؟ وهل الذكوريـة لها دخالـة في تقييد الخلافة الأنطولوجيـة العامّة؟

وفي مقـام الجـواب نقـول إنّـه لا يجـد المتتبّـع هـذا الأمـر في الواقـع، بـل يجـد العكـس تمامًا؛ لأنّ التنميـة المسـتدامة الأنطولوجيـة لا تقتـصر على الرجـل، وللعرفـاء في ذلـك برهانهـم المنطلـق مـن رؤيتهـم للعالـم، ورؤيتهـم الـتي تختلف عـن غيرهـم أثّـرت في نظرتهم للمـرأة، فهم يـرون أنّ نسـبة الجنـس للإنسـان نسـبة العـرض للجوهـر، ولا يؤثّـر هـذا الاختـلاف على مقـام الخلافة لكلٍّ مـن الرجـل والمـرأة، فـكلّ طـرف يمثّـل تجلّيًا مـن تجلّيـات الأسـماء الإلهية، وبمـا أنّـه لا تكرّر في الأسـماء والصفـات الإلهيـة، فهنالـك حتمًـا دور وجـودي للمـرأة متناسـب مـع الاسـم الذي تجـلّى فيهـا. [انظـر: الراسـخي، المـرأة مـن خـلال المعرفـة الشـهودية، مجلّـة المحجّة، العـدد 12]

إنّ الخلافـة في الأرض ليسـت للشـخص بـل للشـخصية، أي أنّ الخلافـة لمقـام الإنسـانية، وهـذا المقـام يتسـاوى فيـه الذكر والأنـثى، ولقد أوضح الشـيخ جوادي آملي بـأنّ توجيه الخطـاب لآدم بصيغة

المذكّر حول ما يخصّ الخلافة والسجود له لا يعني الاختصاص به دون حوّاء؛ وفقًا لذلك قال المولى: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾ الشامل للطرفين. [انظر: جوادي آملي، المرأة في مرآة الجلال والجمال، ص 154 و155]

ولقد قسّم العرفاء مراحل السير والسلوك إلى أربع مراحل، وهي السفر من الخلق إلى الحقّ، والسفر من الحقّ إلى الحقّ بالحقّ، والثالث هو السفر من الحقّ إلى الخلق بالحقّ، والرابع من الخلق إلى الخلق بالحقّ، وفي الإنسان ـ سواءٌ كان رجلًا أو امرأةً ـ المقتضي لسلوك هذه الطرق الأربعة، وإنّما الاستشكال يأتي في السفرين الثالث والرابع، المتضمّنين للرجوع من الحقّ إلى الخلق، المعبّرين عن النبوّة والرسالة التي حرمت منها المرأة، مع أنّ هذين الطريقين يخصّان الولاية التي لا تفاوت فيها بين الرجل والمرأة، فالنبوّة ليست من لوازم الرجوع من الحقّ إلى الخلق. [انظر: المصدر السابق، ص 323 - 325]

وبعبارة أخرى إنّ مسألة الحرمان من الرسالة التشريعية بما تتضمّنه من جوانب تنفيذية شاملة للمرأة والرجل على السواء، طالما أنّ النبوّة قد ختمت، وأمّا نيل الولاية فلا يقتصر على الرجال.

وهذه المسألة تعرف زواياها إن جرى التعرّف على الإنسان في النظرية المعرفية الإسلامية، ومكانته في عالم الوجود، وقضيّة الخلافة التي ذكرنا جزءًا يسيرًا منها تسلّط الضوء على مكانة الإنسان في عالم الوجود.

ووفقًا لما مرّ فهناك خريطة إلهية يسير عليها كلٌّ من المرأة والرجل في توازن وجودي معبّر عن غائية تكاملية بين الطرفين؛ من أجل إرساء الخلافة على الأرض.

المطلب الثالث: اشتراك المرأة والرجل في الامتحان والابتلاء الإلهي

إنّ الامتحان الإلهي والابتلاء وكدّ الاستكمال غير مقتصر على الرجل، ونشاهد عيانًا ووجدانًا أنّ المرأة وقعت عليها سنّة الابتلاء والامتحان.

فما جرى على الأنبياء والأولياء عليهم السلام[1] ـ ولا سيّما نبيّنا محمّد صلى الله عليه وآله [انظر: اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ص 113؛ الطبري، تاريخ الطبري، ج 2 ، ص 72]، وعلى أمير المؤمنين والحسن والحسين عليهم السلام [انظر: الهلالي، كتاب سليم بن قيس، ص 416 وما بعدها] ـ قد جرى على سيّداتٍ مبجّلاتٍ كخديجة زوجة النبيّ صلى الله عليه وآله والسيّدة آسية زوجة فرعون، والسيّدة مريم العذراء، والسيّدة فاطمة بنت النبيّ محمّد صلى الله عليه وآله، وابنتها السيّدة زينب. فالابتلاء الذي واجهته السيّدة مريم كنموذج للابتلاء الصعب [سورة مريم: 27 و28] وكذلك حينما واجهت آسية زوجة فرعون الطغيان والظلم ودافعت عن حرّية العقيدة بكلّ بسالة.[سورة التحريم: 11]

1- وكمثال على ذلك ما جرى لنبيّ الله أيّوب عليه السلام: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ۞ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ﴾ [سورة الأنبياء: 83 و 84].

والسـيّدة الزهـراء فاطمـة بنـت محمّـد ﷺ، الـتي ما تـزال مأسـاتها حـاضرةً في الأذهـان؛ إذ جابهت الدكتاتوريـة والدوغمائيـة بجسـدها الناحـل الضعيف وثقافتهـا الإلهية الرصينـة، وذهبت شـهيدةً خالدةً وأعطـت كلّ شيء لعقيدتهـا. [المصدر السـابق، ص 218 ومـا بعدهـا؛ انظـر: العامـلي، مأسـاة الزهـراء، ص 180].

إنّ الآيـات القرآنيـة التي تخاطـب البشرية بـأنّ البارئ ﷻ ينزل البـلاء والامتحان عليهـم بأنواعه العديـدة، أمثـال الابتلاء بالخوف والجـوع ونقصٍ في الأمـوال والأنفس والثمـرات[2]، وبعبارة أخرى، الانسـداد في الجانـب الأمـني والاقتصـادي والاجتماعي والنفسي، يدخـل القلق على النفس الإنسـانية مـن جوانبهـا كافّـةً، فهـذه الأمـور لا تختـصّ بالرجـال، والصـبر عليها مـن أجـل الارتقـاء في مراتب الكمـال الوجـودي ليـس خاصًّـا بالرجال، بـل هو للمجتمـع عامّةً من نسـاء ورجال، بل قد نجـد أحيانًا أنّ النسـاء أكـثر معانـاةً من الرجـال، في مواجهة الانسـداد الحياتي.

المطلب الرابع: مسألة المساواة بين الرجل والمرأة في الاستعداد الذهني

لقـد ثـار النقاش والجدل بـين أهل الفكر حول هذه المسـألة، ولا يخـفى الإفراط والتفريـط إزائها، وما تـزال القضيّة محلّ جـدلٍ وأخذٍ وردٍّ.

إنّ الأمـر مرتبـط بالنظـرة الوجوديـة لدور المـرأة في الحيـاة؛ إذ إنّ هنـاك عـدّة موضـوعات مختزنة في الـلاوعي الجمـعي أو الاجتمـاعي، تشـكّل بإجمالهـا وتفاصيلها النظـرة العامّـة للمرأة.

وحـتّى الـرأي المخالـف يلاحـظ أنـه ليـس إلّا حالـة ردّ فعـل لمـا ذكرنـا، فكأنّـه يريـد أن يثبت وجـوده وإن اسـتدعى تنظـيره انحرافًـا عن ثوابـت الوضع الطبيـعي للخلقة؛ إذ «شـدّد الفكر النسـوي الليـبرالي في القرنـين الثامـن عـشر والتاسـع عـشر على عقلانيـة النسـاء وضرورة تعليمهـنّ تعليمًـا مسـاويًا لتعليـم الرجـال، متحدّيًـا التراث الفلسـفي التقليدي الذي تغاضى عن اسـتعدادات النسـاء العقليـة، والتفـت إلى وظيفتهـنّ البيولوجيـة وقدرتهـنّ على الإنجـاب. وقد جاء التشـديد على قدرات المـرأة العقليـة ليؤكّـد أنّهـنّ مؤهّلات لماكـنّ يطالبن به مـن حقوق، كحـقّ التعليم والتملّـك والعمل والتصويـت. لكـن بعـد أن حـازت النسـاء في القـرن العشريـن على هـذه الحقـوق وخضـن مجـالات العمـل المختلفـة، واجهتهـنّ مشـكلة جديدة لـم تلتفت إليهـا النسـوية الليبرالية في القرنـين الثامن عـشر والتاسـع عـشر، وهي مسـؤوليتهنّ المزدوجـة نتيجـة عملهـنّ خـارج المـنزل وداخلـه، إضافـةً إلى الحمـل والـولادة ومـا يتبـع ذلك مـن أعمـال تتعلّق بتنشـئة الأطفـال ورعايتهم، وهي مسـؤوليات تضطلـع بهـا المرأة وحدهـا» [العزيـزي، الأسـس الفلسـفية للفكـر النسـوي الغـربي، ص 157].

2- ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [سورة البقرة: 155]؛ ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ﴾ [سورة البقرة: 214].

إشكاليّة نقص العقل عند المرأة

إنّ أهـمّ القضايـا الـتي تخـصّ المـرأة والـتي لم ينتـهِ الجـدل حولها قضيّـة عقل المـرأة، ولقد عدّ الشـيخ مصبـاح الـيزدي مـا ذُكـر من نقـص عقل المـرأة مزاعم خاليـةً، والأدلّـة المطروحـة في هذا المجال ليسـت واضحـةً أو قطعيـة، وهناك تفسـيرات لكلٍّ منهـا. [مصباح اليـزدي، أسـئلة وردود، ص 352]

إنّ إثبـات نقـص عقـل المـرأة يحتـاج إلى دليـل؛ إذ سـتتبعه محاذيـر علميـة وعقلية. ولكـن يمكن القـول إنّ الاختـلاف قـد يكون على مسـتوى العقـل العملي، وأمّـا في العقـل النظري فهما متسـاويان وذلك مـن خـلال التقريبـين التاليين:

التقريب على مستوى العقل النظري

إنّ العقـل النظـري هو مبـدأ الإدراك عنـد الإنسـان، سـواءٌ كان الإدراك متعلّقًا بالأمـور النظرية، أي بمـا هـو كائـن، أو بالأمـور العمليـة، بمعـنى مـا ينبـغي أن يكـون، وهـو مشـترك بين جميـع أبناء البـشر، ولا فـرق في ذلـك بـين الرجـل والمـرأة، ويمكـن اثبات ذلـك من خـلال تقريب منطـقي مفاده أنّ القضيّـة الموجبـة الكلّية نقيضها سـالبة جزئية [المظفّر، المنطق، ص 168] وبالتالي يمكـن أن تكون القضيّة المطروحة كمـا يلي:

(كلّ النساء ناقصات العقول)، نقيضها: (ليس بعض النساء ناقصات العقول).

وبذلـك يتبـيّن أنّ بعـض النسـاء ناقصـات العقـول، وبالتـالي تكـون بعض النسـاء غـير ناقصات العقـول؛ لأنّ النقيضـين لا يجتمعـان وهي قضيّـة بدهيـة.

إذن ليس جميع النساء ناقصات عقل، كما أنّه ليس جميع الرجال بكاملي العقل.

إذن ثبـت أنّ عقليـة الرجل والمـرأة في تقبّل العلوم واحدة، وهذا ما أثبته العلم ولـم يذكره القرآن الكريم، أي أنّ القـرآن لـم يـشر إلى نقص في عقل المـرأة، وهي متسـاوية في ذلك مع الرجل، بل جعل بعض النسـاء في قمّـة المعرفـة العقليـة مـن خـلال مـا ضرب الله ﷻ مـن أمثلـة على ذلـك وأرادها قـدوةً للناس، كآسـية امـرأة فرعـون عندمـا وصلـت إلى المعرفة الإلهيـة [انظر: مطهري، نظام حقوق المرأة في الإسلام، ص 11] وقالت: ﴿**رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ**﴾ [سـورة التحريـم: 11] و﴿**ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ**﴾ [سـورة التحريـم: 11].

التقريب على مستوى العقل العملي

إنّ العقـل العمـلي مبـدأٌ للدوافـع والمحفّـزات، لا الإدراك، وهو السـبب في تحصيل الشـوق للإتيان بالعمـل، وهـو كالعقل النظري مشـتركٌ بين المـرأة والرجل ولا يختلـف بينهما، ولكنّ العقـل العملي في نزوعـه نحو العمـل يتأثّر بقـوًى أخرى في النفـس، كالقوّتين الشـهوية والغضبية والانفعالات النفسـية كالمشـاعر والعواطـف وغـير ذلك مـن الأمور الـتي تؤثّر عليـه في ترجيحه لإحـدى كفّـتي العمل. هذه

العوامل المؤثّرة على العقل العملي تختلف في الشدّة والضعف بين الرجل والمرأة؛ وذلك بسبب بسبب اختلاف الوظيفة الحياتية لكلٍّ منهما في ضمن النظام الأصلح للخلق، وبناءً على هذا يمكن القول بأنّ الروايات التي تتضمّن إيحاءً أوتصريحًا الانتقاص من قيمة المرأة هي على العموم تؤدّي أداءين اثنين:

الأداء الأوّل: الحكم الشرعي.

الأداء الثاني: تصوير الإطار العامّ للنظرية الإسلامية عن مكانة المرأة.

ولو غضضنا النظر عن الأسناد الضعيفة التي وردت في شأن نقص عقل المرأة، فإنّ المتون نفسها لا تعدو أن تكون إشارةً إلى العقل العملي، أي التذكّر والقدرة على التدبير والإدارة. [فضل الله، المرأة والولاية السياسية والقضائية، مجلّة فقه أهل البيت، ص 79]

إنّ العاطفة تحتلّ مساحةً أكبر من نفس المرأة وشدّة عواطفها وأحاسيسها تسبّب قلّة السيطرة على نفسها؛ ولا شكّ أنّ السيطرة على المشاعر والعاطفة هي أولى شروط التفكير السليم، على عكس الرجل في هذا الأمر. [انظر: مصباح اليزدي، أسئلة وردود، ص 353]

ومن نافل القول إنّ الناس يتفاوتون فيما بينهم في العقل العملي، سواء كانوا ذكورًا أم إناثًا، طبقًا لتجاربهم واهتماماتهم في الحياة، فالفلّاح في عمله قطعًا هو أكثر خبرةً من الطبيب، والأخير يمتلك موهبةً ـ بسبب عقله التجربي في نوع عمله ـ لا يرقى إليها غيره. وقد يكون هذا الطبيب امرأةً فستكون في مجال عملها أفضل من المهندس الرجل، وعلى أساس ذلك يمكن القول إنّ التجربة الإنسانية الطويلة أثبتت أنّ اهتمام المرأة على الأغلب يكون ضمن شؤون الأسرة والبيت وتدبير المنزل، واهتمام الرجل وتجربته في شؤون السياسة والحكم والحرب وغير ذلك، دون أن يعني ذلك عدم بروز أحدهما في بعض الأحيان فيما هو من اختصاص الطرف الآخر؛ إذ قد تبرز بعض النساء في الحكم والسياسية أحيانًا.

وبالتالي نخلص إلى ما يلي:

1ـ أنّ القضيّة بعيدة عن العقل النظري، بل هي راجعة للعقل العملي.

2ـ أنّ القضية هي على نحو الموجبة الجزئية في كلا الطرفين (النساء والرجال).

فإنّ المرأة إذا تلقّت التعليم والتكوين الصحيح، وتربّت تربيةً صحيحةً من خلال البيئة والظروف الملائمة التي تساعد على التربية القويمة، وأصبح بمقدورها التدبّر والتفكّر بطريقة منطقية، مستخدمةً بذلك عقلها السليم، فلا فارق بينها وبين الرجال.

فإنّ المرأة المستعدّة إذا دخلت إلى الجامعة أو الحوزة والأماكن التي تستطيع أن تقدّم من خلالها خدمةً وتبرز ما عندها من استعداد، وتحصل على معرفة الآخرة وسائر القضايا الإسلامية

المشتركة، ويصبح بميسورها تعليم الدين وتبليغه كما يفعل الرجال الملتزمون، فهل يمكن القول بأنّ الروايات والأحاديث التي جاءت تذمّ النساء وتحذّر من مشورتهنّ والأدلّة المطروحة بشأن نقص عقولهن تشمل الفئة السالفة من النساء؟ [انظر: جوادي املى، المرأة في مرآة الجلال والجمال، ص 35]

كالحديث المرويّ عن أمير المؤمنين عليه السلام إذ يقول: «يا أشباه الرجال ولا رجال، حلوم الأطفال وعقول ربّات الحجال» [نهج البلاغة، الخطبة 27؛ ابن بابويه القمّي، معاني الأخبار، ج 2، ص 182؛ الكليني، أصول الكافي، كتاب الجهاد، ص 70].

وقوله عليه السلام: «إيّاك ومشاورة النساء؛ فإنّ رأيهنّ إلى أفن، وعزمهم إلى وهن» [نهج البلاغة، الرسالة 31].

وقوله في خطبة طويلة له: «... وتحكيم النساء نواقص العقول ...» [المجلسي، بحار الأنوار، ج 3 ، ص 179؛ الحرّ العاملي، وسائل الشيعة، ج 51، ص 344].

فلا يمكن أن نقول إنّ هذه الأحاديث تخصّ حتّى المرأة العاملة التي توفّرت فيها شروط العلم، وحصلت على ما حصل عليه الرجال من النبوغ الفكري. وكذلك لا يمكن القول إنّ عقول هؤلاء النساء هي كعقول الأطفال لمجرّد أنوثتهنّ وكونهنّ نساءً في مجال العقل النظري. [انظر: جوادي آملي، المرأة في مرآة الجلال والجمال، ص 35]

وإنّ هذه الأحاديث مطلقة، ونتيجة الأغلبية الناتجة عن الحرمان البعيد عن ميدان التعليم، وحرمان هذه الطائفة من التربية الصحيحة، ولو توفّرت الظروف السليمة لاستطاعت أن تقلب الغلبة؛ إذ إنّ هذه الأحاديث ليست ثابتة الأحكام مثل أحكام العفاف والحجاب وغيرها التي لا يمكن بمرور الزمان وتغيّر المكان أن تتغيّر أحكامها، وإنّما هي تتعلّق بنمط التربية ووضع البيئة، فذكاء بعض النساء ونبوغهنّ له قدمة تاريخية. [المصدر السابق، ص 35]

المطلب الخامس: المساواة بين الرجل والمرأة في الاستعداد الروحي

راق لي ذكر رأي العرفاء الذين نظّروا لقضيّة مكانة المرأة، وإن كنت أخالفهم في طريقة الاستدلال، فمدرسة العرفاء مدرسة عريقة، ولا أرى من الصحيح المرور على ما ذكروه مرور الكرام! فانطلاقًا من قول ابن عربي: «اعلم أنّ المرأة باعتبار الحقيقة عين الرجل، وباعتبار التعيّن يتميّز كلٌّ منهما على الآخر» [ابن عربي، فصوص الحكم، ص 67]. ونلاحظ أنه يشير إلى عدم التمايز بين الرجل والمرأة؛ لأنّ الحقيقة الإنسانية واحدة، والتمايز يكمن في التعيّن والتشخّص، وبالتالي هما متساويان في الرقيّ العرفاني والوصول إلى المقامات العلوية في عالم معرفة الله والعلاقة بالله جلّ جلاله، ويقول ابن عربي: «إنّ هذه المقامات ليست مخصوصةً بالرجال؛ فقد تكون للنساء أيضًا، ولكن لمّا كانت الغلبة للرجال تذكر باسم الرجال» [المصدر السابق].

ولو سلّمنا بهذه الغلبة التي يقرّ بها ابن عربي، فلنا أن نتساءل هل هذه الغلبة في نيل المقامات العرفانية ذاتية أم عرضية، أي هل يوجد في أصل خلقة المرأة أنّه ليس من شأنها نيل المقامات العرفانية؟

والجواب بالنفي حتمًا؛ لأنّه لا يوجد ولا دليل واحد على ذلك، بل إنّ هناك عوامل وظروفًا خارجيةً هي التي أدّت إلى تقدّم الرجال على النساء، وأخصّ بالذكر عوامل التربية والبيئة المحيطة، فالتربية في الأسرة قائمة على فكرة الترتيب المتأخّر للبنت، أي أنّ شأنها الذي لا تفقه غيره هو عمل البيت وخدمة الآخرين في العائلة، فليس شأنها العبادة، بل خدمة العابدين! وليس شأنها التفكير، بل خدمة المفكّرين! وليس شأنها الحكم، بل خدمة الحاكمين! ولم يعطوا مجالًا للمرأة، بل حبسوها في البيت ومنعوها عن العلم والتعليم، ثمّ قالوا: حيوانٌ لا يفهم!

ووفقًا لابن عربي فإنّ المرأة أكمل من الرجل في مظهريتها لأسماء الله ﷻ وصفاته؛ لأنّها مظهر لطرفي الفعل والانفعال، بعكس الرجل الذي يكون مظهرًا للقبول والانفعال فقط، وكلّما كان المظهر جامعًا للأسماء والصفات الإلهية، كان أكمل في مظهريّته لله ﷻ، وبالتالي صارت محبوبة الرسول الكريم ﷺ وكما نقل عنه: «حبّب إليّ من دنياكم الطيب والنساء وقرّة عيني في الصلاة» [المجلسي، بحار الأنوار، ج 73، ص 141].

فمن شروط نيل الخلافة عند ابن عربي ـ أي خلافة الله في العالم ـ الاتّسام بالكمال والإنسانية والصورة الإلهية؛ لذلك ليس من حقّ كلّ إنسان أن يكون خليفةً، ثمّ إنّ هذا المقام غير مقتصر على الرجال؛ لأنّ المعيار هو الإنسانية، بل أقصى درجات الإنسانية، وهذا ممّا يمكن للنساء كما الرجال، فليس المعيار هو الذكورية. فالذكورية والأنوثية ليستا من الحقائق الإنسانية، وإنّما من أعراضها؛ ولذلك قال الرسول محمّد ﷺ: «كمل من الرجال كثيرون، وكملت من النساء مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون، وخديجة وفاطمة» [انظر: ابن عربي، رسائل ابن عربي (عقلة المستوفز)، ص 7].

وقد أثبت ذات الرأي في "الفتوحات المكّية" عندما صرّح بأنّ الحقيقة الإنسانية الواحدة لا تجعل للرجل على المرأة أيّ درجة من هذه الحيثية. [انظر: ابن عربي، الفتوحات المكّية، ج 3، ص 87؛ انظر: قنبري، المرأة في التراث العرفاني، ص 59]

المبحث الثالث: مكانة المرأة في بعض الآراء الفلسفية

المطلب الأوّل: موقف أرسطو من المرأة

إنّ موقف أرسطو من المرأة ينطلق من نظرته المعرفية للوجود، وانعكاس نظرته للعالم على القضيّة الأخلاقية والاجتماعية؛ إذ إنّ هناك هرميةً وجوديةً تنظّم العالم، فالكون مرتّب بشكل

تسلسل تصاعدي من أدنى موجود إلى أعلاه، فالجماد أدنى مراتب الموجودات يقوم على خدمة النبات؛ إذ إنّه يتغذّى من الموادّ الموجودة في التربة، والنبات موجود لصالح الحيوان، والأخير لصالح الإنسان، فالحيوانات المستأنسة موجودة لتأمين غذائه، والحيوانات البرّية موجودة لتأمين كسائه وأدواته المختلفة، وكلّ ذلك من فعل الطبيعة، وهي لا تفعل شيئًا باطلًا، فجميع الموجودات ضمن التسلسل الهرمي في خدمة الإنسان؛ لأنّه أعلاها، فهو يتربّع على قمّة السلسلة تحت فلك القمر. [انظر: إمام، أرسطو والمرأة، ص 29]

هذه الهرمية التصاعدية الوجودية لا بدّ بحسب أرسطو أن توجد في الحالة الاجتماعية، فلا بدّ من تقسيم البشر إلى درجات يعلو بعضهم بعضًا، فهناك هرمية بين الشعوب، فالطبيعة تميل لإيجاد هذا التمايز، فهناك من هو قليل الذكاء وبعضهم شديده، وهناك من هو قويّ البنية وهناك ضعيفها، وهكذا، وهذا ينعكس على الناس؛ فيوصم بعضهم بأنّهم أحرار بالطبع، وبعضهم عبيد بالطبع. إذن لا يقرّ أرسطو مبدأ المساواة بين جميع أبناء النوع الإنساني، فالهرمية الاجتماعية والسياسية، قد أقامت ثنائيةً في كلّ شيء تقريبًا، وتعارضًا بين شيئين، بين الأعلى والأدنى، بين النفس والبدن، بين العقل والشهوة، بين الإنسان والحيوان، بين الذكر والأنثى ... وهذا ليس فيه نقص، بل هو لصالح الاثنين معًا. وبالتالي يسود مبدأ الحاكم والمحكوم، فالموجودات الجامدة هي الأدنى؛ ولهذا تقع تحت سلطان الكائنات الحيّة؛ ولهذا كانت الأولى في سلّم الطبيعة؛ لأنّها تتألّف من عنصرين (النفس، الجسد)، والأوّل بطبيعته حاكم والثاني بطبيعته محكوم. والعقل يحكم الشهوة، وهذا في غاية الروعة والفائدة، فمن صالح البدن أن تتحكم فيه النفس، ومن المفيد أن يتحكم الجانب العقلي في النفس، وأمّا لو حصل العكس، فسوف يعود بالضرر عليهما.

وباختصار لقد قام أرسطو بتوظيف مفاهيم الفلسفة مثل المادّة والصورة، والحركة والمتحرّك، والوجود بالقوّة والوجود بالفعل، وفكرة الوظيفة، في التمييز بين الذكر والأنثى. [انظر: المصدر السابق، ص 30 - 32]

ووفق هذا التنظير فإنّ المرأة أقلّ مرتبةً من الرجل؛ باعتبار أنّه حدث الانحراف الأوّل في الطبيعة بظهور الأنثى؛ لأنّ الأصل أنّ الطبيعة تنتج الذكور. [انظر: المصدر السابق، ص 61]

ولقد انعكست آراء أرسطو الوجودية على المرأة، ليس من حيث ما يفترضه من مرتبتها الوجودية المتدنّية نسبةً إلى الرجل فحسب، بل وعلى حياتها السياسية أيضًا، فلا يحقّ للمرأة ممارسة السياسة؛ لأن الجانب اللاعقلي في نفس المرأة متغلّب على الجانب العقلي، وهذا من فعل الطبيعة التي جعلت الإناث ذوات عاطفة متغلّبة. وبالتالي فإنّها لا تصلح للعمل السياسي الذي يتطلّب الابتعاد عن الميول العاطفية في اتّخاذ القرارات.

ولكـن تقـرّر برهانيًـا أنّ الخـلاف بين الذكـر والأنثى ليـس في الماهيـة؛ لأنّ ماهية الإنسـان واحدة وهي (الحيوانيـة الناطقيـة)، فالمنطق يحكم على الأشـياء من خلال فصولها المنطقيـة وحدودها الماهوية، ولا يـدّعي أحـد مـن الفلاسـفة أنّ المـرأة ليسـت بإنسـان، وإذا كانت إنسـانًا فمن الـضروري أن ينطبق عليهـا تعريـف الإنسـان. فالاختـلاف إذن بـين الذكر والأنـثى ليـس ماهويًّا، بـل وجودي، وهـو تابعٌ لنحـو وجودهـا ومحكـوم بالأعـراض التسـعة المشـخّصة للوجـود. ولا يـدّعي أحـد أنّ العمل السـياسي عـرض مختـص بالرجـل، بـل هو نـوع من أنـواع المهـارات الحياتيـة التي يمكن لـكلا الجنسـين القيام بهـا، مـع عـدم إنـكار أنّ الرجـل ربّمـا يقـوم بهـا على نحوٍ أفضـل في أغلـب الأحيـان، فـهي أميل إلى جانـب الذكور.

المطلب الثاني: التراث الفلسفي المسيحي

إنّ الفكـرة الأساسـية الـتي وردت في العهـد القديـم عـن المـرأة من وجهـة نظري هي المسـؤولة عن تـردّي وضـع المـرأة، تلك النظـرة القائمة على نظرية أنّ حـوّاء خُلقت من ضلـع آدم، وأنّ أصل البشرية ليـس إلّا مـن آدم، أي مـن الذكـر[3]. وهذا سـيوقع من يخالف هـذه الفكرة في معضلـة الاختيار الحتمي بـين الديـن واللادين؛ لأنّ الديـن وفقًا لهـذا السـياق هو المسـؤول عن التخلّـف الذي أصـاب العقول في النظـر إلى المـرأة ، وليـس هنـاك من طريـقٍ للخلاص مـن هيمنة هذه الفكـرة إلّا بـنزع رداء الدين.

إنّ هـذا مـا تلاحظـه عنـد القديـس بولـس [إمام، الفيلسـوف المسيحي والمـرأة، ص 51]؛ إذ إنّ فكـرة القدّيـس بولـس عـن المـرأة تتّضـح بنقـل كلامـه إلى أهـل كورنثـوس عندمـا قـال: «فَـإِنَّ الرَّجُلَ لَا يَنْبَـغِي أَنْ يُغَطِّـيَ رَأْسَـهُ لِكَوْنِـهِ صُـورَةَ اللهِ وَمَجْـدَهُ. وَأَمَّـا الْمَـرْأَةُ فَهِيَ مَجْـدُ الرَّجُلِ» [1 كو 11: 7]، «لِهـذَا يَنْبَـغِي لِلْمَـرْأَةِ أَنْ يَكُـونَ لَهَـا سُـلْطَانٌ عَلَى رَأْسِـهَا» [1 كو 11: 10].

وبولـس يشـابه أرسـطو في كونـه يضع المرأة وضعًـا متدنّيًا في نظـام الوجود، لكنّه ذهـب إلى أكثر من ذلـك حينما صبغ هـذه الفكرة بصبغة دينيـة. [المصدر السـابق، ص 53]

وأوغسطين (Augustine of Hippo) ليس ببعيد عن الفكرة المزبورة، فتجده يقول:

نـرى الإنسـان في آخـر المطـاف قد خُلـق على صورتك وشـبيهًا لـك، ويحكـم جميع الحيوانـات التي لا عقـل لهـا؛ ولهـذا السـبب خلق على صورتـك وشـبيهًا لـك، أي لأنّ لديه قـوى العقل والفهـم. وكما أن هنـا قوّتـين في نفـس الإنسـان إحداهما مهيمنة لأنّهـا تفكّر، والأخـرى مطيعة لأنّها مشـمولة بهذه

3- «فَأَوْقَـعَ الـرَّبُّ الإِلـهُ سُـبَاتًا عَـلَى آدَمَ فَنَـامَ، فَأَخَـذَ وَاحِـدَةً مِـنْ أَضْلاَعِـهِ وَمَـلأَ مَكَانَهَـا لَحْـمًا. وَبَنَـى الـرَّبُّ الإِلـهُ الضِّلْـعَ الَّتِـي أَخَذَهَـا مِـنْ آدَمَ امْـرَأَةً وَأَحْضَرَهَـا إِلَى آدَمَ. فَقَـالَ آدَمُ: هـذِهِ الآنَ عَظْـمٌ مِـنْ عِظَامِـي وَلَحْـمٌ مِـنْ لَحْمِـي. هـذِهِ تُدْعَـى امْـرَأَةً لأَنَّهَـا مِـنِ امْـرِئٍ أُخِـذَتْ» [سفر التكوين: 2: 21 - 22 - 23].

الهداية، كذلك المرأة خُلقت للرجل من حيث الجسم. فالمرأة من حيث الذهن لديها طبيعة مماثلة للرجل، ومن حيث الجنس والجانب الجسماني فإنّها تابعة للرجل. وبنفس الطريق يجب أن تخضع فيها حركاتنا الطبيعية للقوّة الذهنية الاستدلالية؛ من أجل أن تقع تلك الأعمال التي تتمّ بواسطتها تلك الحركات، تحت إلهام أصول السلوك الحميد.

واستدلاله قائم على أساس أنّ الرجل ذو عقل قويّ والمرأة ضعيفة العقل؛ لذلك لا بدّ للمرأة من اتّباع الرجل وطاعته، وهذا أمر ـ كما يقول ـ تابعٌ لنظام التكوين. وأمّا الزواج فهو شرٌّ لا بدّ منه لأولئك الذين من الممكن أن يخرجوا من طريق التقوى بفعل الأهواء النفسانية. إنّ الزواج يجعل الرجل دنيويًّا والعزوبة تجعله إلهيًّا.

وليس توما الأكويني (1274 ـ 1225) ببعيد عن هذا السياق في التنظير، ففي كتابه "الخلاصة اللاهوتية" يعتقد أنّ المرأة خُلقت من الرجل، ويعتمد أيضًا على رواية العهد القديم، فمثلما أنّ الله ﷻ مبدأ كلّ العالم، فكذلك الرجل الأوّل مبدأ كلّ النوع البشري [أنظر: راسخي، المرأة من خلال المعرفة الشهودية، مجلّة المحجّة، العدد 12، ص 148 و 147]. وباختصار لا يختلف فكر الأكويني عن فكر بولس.

ويلاحظ ممّا ذُكر في المقام أنّ الجنس والكمون الشهواني هو الذي يحرّك أفكار بعض الفلاسفة ورجال الدين نحو المرأة ووضعها في النظام الإنساني العامّ؛ ووفقًا لذلك نستطيع معرفة حقيقة بعض النصوص التي أطلقها بعضهم، مثل بولس الذي يقول: «لِتَصْمُتْ نِسَاؤُكُمْ فِي الْكَنَائِسِ، لأَنَّهُ لَيْسَ مَأْذُونًا لَهُنَّ أَنْ يَتَكَلَّمْنَ، بَلْ يَخْضَعْنَ كَمَا يَقُولُ النَّامُوسُ أَيْضًا. وَلكِنْ إِنْ كُنَّ يُرِدْنَ أَنْ يَتَعَلَّمْنَ شَيْئًا، فَلْيَسْأَلْنَ رِجَالَهُنَّ فِي الْبَيْتِ، لأَنَّهُ قَبِيحٌ بِالنِّسَاءِ أَنْ تَتَكَلَّمَ فِي كَنِيسَةٍ» [1: كو: 14: 34 و35].

وممّا يساعد على ذلك تلك الفكرة التي تقول إنّ المرأة أصل الخطيئة، وهي الفكرة التي سيطرت ولم تزل تسيطر على الفكر الديني المسيحي واليهودي، بل وحتى العقلية العامّية الإسلامية تأثّرت بها، ومفادها أنّ المرأة أصل الغواية، وهي المسؤولة عن انحراف آدم وخروجه من الجنّة. وحتّى أنّ المرأة دائمًا ما تقترن بالحيّة. [المصدر السابق، ص 16]

إنّ ما ذهب إليه هذا الفكر الانعزالي عن المرأة يخالف ما جاء به النبيّ عيسى عليه السلام الذي كان يتحدّث مع النساء والرجال عامّةً، فلم يكن مستمعوه من الرجال وحسب، وكانت الجموع التي تتّبعه رجالًا ونساءً، ويعالج الجميع دون استثناء، بتصريح القرآن إذ يقول: ﴿**وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ**﴾ [سورة الزخرف: 63]، فلم يأت بالبيّنات ليؤمن به الرجال فقط، بل كان خطابه عامًّا.

المبحث الرابع: المكانة الوجودية للمرأة في الفكر الإسلامي

الإسلام ملزم بالإجابة على الأسئلة الحضارية الكبيرة من قبيل: ما مكانة المرأة في الإسلام بوصفه شريعةً ونظامًا وجوديًّا متكاملًا؟ وهل تكفي الأجوبة التسكيتية أمام الآخر الثقافي والفكري، أم لا بدّ من تحديد نظري متناسق مع آليات عملية تتحوّل إلى واقع معاش سلوكي يومي في كلّ الاتّجاهات؟ وهل تستطيع الفلسفة الإسلامية التخلّص من عبء الفلسفة اليونانية والتراث الروماني اللذين حطّا من قيمة المرأة؟ [النشار، مكانة المرأة في فلسفة أفلاطون.. قراءة في محاورتي الجمهورية والقوانين، ص 11]

المطلب الأوّل: المرأة في القرآن الكريم

أخذت المرأة في الفكر الإسلامي مكانتها الواقعية الجديرة بها المستندة إلى نصوص الشريعة، ولن نجد دينًا أو اتّجاهًا فكريًّا أنصف المرأة كما الإسلام؛ فلقد أجاب الإسلام عن السؤال الحضاري الكبير، ورفع عن كاهل المرأة أثقال مئات السنين من الظلم والحيف؛ إذ فكّك القرآن الكريم ذلك الإشكال الفكري المتضمّن تهمةً أزليةً للمرأة، ألا وهي قضيّة تحمّلها لوحدها وزر الخروج من الجنّة! جاء في القرآن الكريم: ﴿**وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ۞ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ**﴾. [سورة البقرة: 36 - 35]

والآيتان صريحتان بأنّ الخروج من الجنّة كان بسبب رضوخ كلٍّ من آدم وحوّاء لتسويلات الشيطان، وأنّ الشيطان هو المسؤول عن الغواية. وكلاهما (آدم وحوّاء) مسؤولان عن الخروج من الجنّة، بل وأكثر من ذلك، فإنّ القرآن جعل مسؤولية التوبة على عاتق آدم عليه السلام؛ لذلك تجد القرآن يقول: ﴿**فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**﴾ [سورة البقرة: 37].

ولقد جاء في التراث الإسلامي أنّ السيّدة الزهراء عليها السلام خرجت تدافع عن تراث النبوّة والدين الذي أصابه الانحراف، وواجهت الظالمين المستبدّين ودافعت عن زوجها وإمامها، ووقفت خطيبةً أمام الناس والحكّام، وخطبت فيهم خطبةً حماسيةً لم يأت أحد بمثلها إلى اليوم. [انظر: الطبري، دلائل الإمامة، ج 9، ص 111 - 125؛ ابن طاووس، الطرائف في معرفة مذاهب الطوائف، ص 247؛ ابن طيفور، بلاغات النساء وطرائف كلامهنّ، ص 5 وما بعدها؛ الجوهري، السقيفة وفدك، ص 71 وما بعدها؛ السيّد المرتضى، الشافي في الإمامة، ج 4، ص 71]

ثمّ أتت بعد ذلك ابنتها السيّدة زينب لتتحمّل مسؤولية الدين والمجتمع، فشاركت في الحرب مع أخيها وقائدها الإمام الحسين عليه السلام، فكانت لها مواقف نادرة في تاريخ البشرية في يوم عاشوراء وبعده أمام الدكتاتور. [ابن طيفور، بلاغات النساء وطرائف كلامهنّ، ص 10 وما بعدها؛ ابن مخنف، مقتل الحسين، ص 77]

ويتّضح من ذلك أنّ التراث الإسلامي لا يهين المرأة ولا يحتقرها ولا يركنها أثاثًا مهملًا في البيت، بل أوصلها إلى درجة أن تتحمّل مسؤولية دين بأكمله، وهذا يظهر أيضًا في نظر الإسلام إلى التراث السابق عليه، مثل نظره إلى آسية امرأة فرعون ومريم ابنة عمران وبلقيس ملكة سبإٍ، كما مرّ بنا قبلًا، فإنّ آسية تحمّلت عبء التوحيد ومقارعة زوجها الحاكم، وتحمّلت في ذلك أنواع العذابات ممّا لا يمكن لرجال أشدّاء تحمّله؛ لذلك قال ﷻ: ﴿**وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**﴾ [سورة التحريم: 11].

وأمّا الثانية فهي السيّدة مريم عليها السلام التي وقعت في محنة اجتماعية ودينية، وتحمّلت ثقل نبوّة ودين من خلال إنجابها الإعجازي غير المسبوق، ووقفت أمام المجتمع اليهودي لا تمتلك إلّا إيمانها وابنها النبيّ، فكانت هداية البشرية بأجمعها من خلال امرأة ضعيفة في بدنها قويّة في دينها، وأيضًا هذا كلّه في ظلّ سيادة الثقافة الرومانية التي لا تحترم المرأة، ولا تكنّ لها أدنى مكانةً. وأمّا بلقيس، فهذه مكانتها في القرآن الكريم؛ إذ قد مدحها ولم ينقض عليها بأنّها حاكمة وملكة وتقود الناس؛ لذا قال ﷻ: ﴿**قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ۞ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۞ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ۞ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ ۞ قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ۞ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ۞ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ**﴾ [سورة النمل: 35 - 29].

نعم، هناك قضيّة الأفضلية[4]، أي أنّ من الأفضل والأحسن والأجمل للمرأة أن تتجنّب الاختلاط، والفلسفة القرآنية هنا جميلة جدًّا عندما يذكر: ﴿**يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا**﴾ [سورة الأحزاب: 32].

فالنصّ القرآني يذكر أنّ الأفضل للنساء بشكل عامّ الابتعاد عن مخالطة الرجال؛ لأنّ هؤلاء الرجال فيهم من هو منحرف النفس والنظر، فوصفه أنّ في قلبه مرضًا، والقضية هنا منطقيًّا مهملة، وفي المنطق تكون القضيّة غير المسوّرة بسور (الكلّية والعمومية) بقوّة الجزئية، أي أنّ بعض الرجال ـ لا كلّهم ـ في قلوبهم مرض الانحراف والشبق الجنسي، والذين ينظرون للمرأة على أنّها جسد يشعرهم باللذّة الحسّية الجنسية. وبذلك برّأ القرآن الكريم ساحة النساء من الانحراف الأخلاقي أو النفسي، وألقى بقضيّة اجتناب الاختلاط على عاتق الرجال.

4- لم تتطرّق المقالة إلى الجوانب العديدة التي أنصفت فيها الشريعة المرأة؛ لأنّها تحتاج إلى مقال مستقلّ، كما لم يتناول الأمور الفقهية الخاصّة بالمرأة.

إذن ينبغي قراءة التراث الإسلامي بعيدًا عن مسارات بعض المحكومين بعقد الجنس والتربية الذكورية الخاطئة، كما نرى ذلك في شخصية أوغسطين، الذي كان قبل مسيحيته منغمسًا في الملذّات الحسّية الجسدية، وكان معاشرًا لامرأة معاشرة الأزواج لأكثر من عشر سنين، وقد أنجب طفلًا منها من الزنا [انظر: إمام، الفيلسوف المسيحي، ص 117]؛ لذلك كانت ردّة فعله قويّةً تجاه المرأة وحمّل صنف النساء كلّ خطيئاته وآثامه.

وحتى بعض أهل القلم اليوم لا يأخذون بالنصوص الدينية من القرآن والسنّة في موقفهم من المرأة، بل يستوحون من تربيتهم الخاطئة في بيوتهم موقفهم من المرأة، وكذلك من الإيحاءات الجنسية التي تعتمل في نفوسهم، ويعدّون المرأة مسؤولةً عن ذنوبهم الجنسية!

وهذا حال الإنسان بشكل عامّ؛ فهو يحبّ دائمًا أن يلقي بتبعة أخطائه على الآخرين، وهذا الأستاذ مطهري يقول: «المعيار الأساس في مجتمعنا هو الشعار، ولا شغل لنا بالعمل والروح ... مجتمعنا علوي شعارًا وضدّ عليٍّ مضمونًا! ... والويل الويل لمن يريد أن يكون علويًّا في صراحته وصلابته، ويقدّم الإسلام على المشايخ ... أردت ان يمسكوا بأيديهم الجافّة مرآةً لينظروا ماذا حلّ بالإسلام والمسلمين جرّاء أفكارهم المغلوطة ... [بما] لا ينسجم مع الإسلام ولا الإنسانية، ذلك التصوّر الذي يحكم على المرأة بالحبس المؤبّد، والحرمان من التعليم ومن كلّ كمال تحت شعار المحافظة على العفّة، فيؤدي ذلك الحبس إلى أن لا يكون للمرأة مشغلة غير إطفاء شهوة الرجل وخدمته» [مهريزي، مسألة المرأة.. دراسات في تجديد الفكر الديني في قضيّة المرأة، ص 137].

فينبغي التفكيك بين ما هو من الدين وما هو طارئ عليه من الفكر الإنساني الذي كثيرًا ما يكون متأثّرًا بالظروف الذاتية والموضوعية للإنسان.

ووفقًا لزكي الميلاد، فإنّ هناك هدفين لهذا التفكيك يتمثّل الأوّل بعدم تفسير طرح الآراء الجديدة بأنّه خروج على الدين وانزياح عن مبادئه، وأمّا الثاني فيكمن في وجود مسافة آمنة في نقد تلك الأقوال من قبل الناس؛ كي لا تفهم على أنّها نقد للدين ذاته، بل للنظريات المتبلورة ضمن الفكر الإنساني القابل للاجتهاد والتطوّر بحسب مقتضيات الزمكان، وبهذا تتمّ عملية الموازنة بين الثابت الديني ونسبية المعرفة الإنسانية. [انظر: زكي الميلاد، الإسلام والمرأة.. تجديد التفكير الديني في مسألة المرأة، ص 234 و 233]

إنّ الخطاب الإلهي في القرآن الكريم تميّز بصفة الشمولية والإطلاق للمخاطب والمكلّف، سواء كان رجلًا أو امرأةً.

ولو مررنا بشكل سريع على الآيات التي تخصّ جانب التكاليف الشرعية أوالجوانب العقدية

وقضيّة الإيمان أو اجتناب الشرور والمعاصي والجوانب الأخلاقية وطرق التكامل الإنساني والعروج في مراتب السعادة والتماس الرضا الإلهي، لتبيّن أنّها لا تختصّ بالرجل وحده أو بالمرأة وحدها.

كما نجد أنّ القرآن الكريم ردّ بوضوح وبشدّة على عقائد الأمم السابقة والأديان الأخرى كاليهودية والمسيحية [انظر: مصباح اليزدي، أسئلة وردود، ص 342]، وما كانوا يعتقدونه بشأن المرأة، وما نتج عن هذه العقائد من مأساة حقيقية للمرأة والمجتمع عمومًا، فالإسلام أرجع المرأة إلى وعيها بإنسانيتها، وأثبت أنّها تستطيع أن تعرج نحو الكمال المفترض للبشرية، سواءٌ من الناحية الدينية أو الدنيوية، وهذه الفروق بين الجنسين ما هي إلّا إرادة إلهية داخلة ضمن النظام الأصلح في الحكمة الإلهية.

فالله ﷻ خلق الإنسان من جوهر واحد ومادّة واحدة، ولو كان هناك فوارق في الجوهر لذُكرت في القرآن الكريم، وجاءت فيها روايات واختلفت التكاليف واختلف الجزاء والعقاب وغيره تبعًا لاختلاف الخلقة وعدم التساوي في المادّة والجوهر، ولكنّ القرآن الكريم ذكر وبصراحة تساوي خلقة الرجل والمرأة واتّحادهما في الجوهر.

ومن هذه الآيات:

1ـ ما جاء في سورة النساء: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا**﴾ [سورة النساء: 1].

2ـ قوله تعالى: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا**﴾ [سورة الحجرات: 13].

فهذه الآية والآيات التي سبقتها تبيّن بكلّ وضوح اتّحاد الناس من حيث الحقيقة، وأنّهم خلقوا من أصل واحد، وتشعّبوا من منشإٍ واحد. [انظر: الطباطبائي، تفسير الميزان، ص 140]

3ـ ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾. [سورة الحجرات: 5]

أمّا هذه الآية فهي تنفي كلّ فرق بين أنواع الجنس البشري كما يقول السيّد الطباطبائي: «من حيث تكوّن كلّ واحدٍ منهم من أب وأمّ إنسانين، فلا ينبغي أن يتكبّر أحدهم على الآخر إلّا بالتقوى» [الطباطبائي، تفسير الميزان، ص 149].

المطلب الثاني: المرأة في الروايات

إنّ ما يهمّنا في البحث هو خصوصية الإجابة عن قضيّة خلق المرأة، وقد يقال بوجود روايات تدلّ على أنّ حواء خلقت من ضلع آدم الأيسر، ولكن يمكن أن يردّ على ذلك:

1ـ أنّ سند تلك الروايات غير موثّق. [انظر: الطوسي، مجمع البيان في تفسير القرآن؛ المجلسي، بحار الأنوار، ج 11، ص 21]

2ـ موافقة هذه النصوص للتوراة المتداولة.

3ـ هناك روايات تناقض أمثال هذه الروايات، كما عن زرارة بن أعين أنّه قال: «سئل أبو عبد الله عن خلق حوّاء وقيل له: إنّ أناسًا عندنا يقولون إنّ الله ﷻ خلق حوّاء من ضلع آدم الأيسر الأقصى! فقال: سبحان الله وتعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا! يقول: من يقول هذا؟ إنّ الله تبارك وتعالى لم يكن له من القدرة ما يخلق لآدم زوجةً من غير ضلعه؟! ويجعل للمتكلّم من أهل التشنيع سبيلًا إلى الكلام أن يقول: إنّ آدم ينكح بعضه بعضًا إذا كانت من ضلعه! ما لهؤلاء؟! حكم الله بيننا وبينهم» [الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ص 209].

وقد علّق مصنّف كتاب "من لا يحضره الفقيه" على الروايات التي تقول إنّ حواء خُلقت من ضلع آدم بقوله: «الأصل في رواية خلق حوّاء من ضلع آدم العامّة وورد الطعن فيها» [المصدر السابق، باب ميراث الخنثى، ص 4].

إذن يتبيّن من هذا كلّه أنّ المرأة إنسان كالرجل تمامًا، لا يختلف في جوهرها مع الرجل، «وأنّ ثمّة فوارق بين الرجل والمرأة من شأنها تنوّع الآثار في الحياة الاجتماعية، وبناءً على هذا فإنّها تقتضي اختلاف الحقوق والواجبات الاجتماعية في الجملة» [مصباح اليزدي، أسئلة وردود، ص 346]. والروح التي خلقها الله ﷻ واحدة، وجعلها في الإنسان ذكرًا كان أم أنثى: ﴿**وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي**﴾ [سورة الحجرات: 29].

لذلك فإنّ الجسم مجرّد اختلاف في التكوين المادّي، أمّا الروح فهو جوهر واحد بينهما، فالمرأة ليست متطفّلةً على الرجل.

الخاتمة

للمـرأة مكانتهـا الوجوديـة المنفعلة عـن الإرادة الإلهيـة في بداية نشـأة الخليقة، فـهي شريكة الرجل في الاسـتخلاف الإلـهي على الأرض، وتتسـاوى مـع الرجـل في الماهيـة والحقيقـة الإنسـانية، وكذلـك تتسـاوى معـه في القابليـات المعرفيـة والذهنية، فـلا يوجد إلّا مـا اقتضته الإرادة الإلهيـة من اختلاف في أصـل الخلقـة بما يـؤدّي إلى التكامـل الوظيفي في الاسـتخلاف وصـيرورة البشرية والنوع الإنسـاني، وهي اختلافـات جسـدية ونفسـية واضحـة، وفـوارق في القابليـات والمقتضيـات، وهذا لا يعـني أبدًا فرقًـا في المرتبـة الوجوديـة كمـا ادّعاه بعـض العلمـاء من مذاقات شـتّى عرفانيـة أو فلسـفية أو دينية.

ولـم يكـن منتجـو الأفـكار في عـصر الحداثة ومـا بعدها أحسـن حـالًا مـن سـابقيهم في النظرة إلى المـرأة، فهـم ما بين إفـراط وتفريط، فجانب التفريط أسـاء إلى المـرأة عندما حكم بأنّ الإبسـتمولوجيا التقليديـة قامـت على مركزيـة العقـل، وأنّ النسـاء غـير مؤهّـلات عقليًّـا لممارسـة التفكـير المجـرّد والموضـوعي، وأنّ المعرفـة الـتي ينتجهـا الذكور انعـكاس لممارسـات العلم المنتـج ذكوريًّـا، وأنّ الإنتاج المعـرفي لا ينفـكّ عـن الفئويـة الاجتماعيـة، وينتـج عن كلّ ذلـك إبسـتمولوجيا أحاديـة الجانب.

وأمّـا الجانـب الإفـراطي فنظر إلى المـرأة نظرته إلى الرجـل بتصوّر أنّ ذلـك انتصار لهـا وتبلور نتيجة لذلك المذهب النسـوي المشـوّه فكريًّـا ومعرفيًّا.

ومـع كلّ ذلـك فـإنّ مـن الفلاسـفة والعرفـاء وعلمـاء الديـن مـن أنصـف المـرأة وفلسـف مكانتها الوجوديـة، ولا بـدّ مـن التفريـق بـين الديـن وبـين مـا يُفهـم مـن الديـن، وهـو فهـم متأثّـر بكثير من الظـروف والملابسـات. ومـع الأسـف أنّ النظـرة إلى المـرأة دينيًّـا متأثّـر بعاملـين هما: بعـض نصوص الكتـاب المقـدّس المهينـة لحـوّاء عليها السلام وعامـل الجنس.

ولـم ينصـف المرأة إلّا دين الإسـلام وفكره الواضـح، الذي بيّن مكانتهـا وحقوقهـا وواجباتها، وجاء ذكـر أمثلـة في القرآن الكريم لنسـاء مثّلـن أعلى رتب الفضيلـة والفكر والوعي.

قائمة المصادر

إمام، عبد الفتاح، الفيلسوف المسيحي والمرأة، مكتبة مدبولي، الطبعة الأولى، القاهرة.

ابن بابويه القمي، محمد بن علي، معاني الأخبار، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، 1361 ش.

ابن طاووس، الطرائف في معرفة مذاهب الطوائف، مطبعة الخيام، قمّ، 1399 ش.

ابن طيفور، بلاغات النساء وطرائف كلامهنّ، مطبعة مدرسة والد العبّاس الأوّل، 2012 م.

ابن عربي، رسائل ابن عربي (عقلة المستوفز)، تحقيق وتقديم: سعيد عبد الفتاح، مؤسّسة الانتشار العربي.

ابن مخنف، لوط بن يحيى بن سعيد، مقتل الحسين، منشورات المكتبة العامّة لآية الله المرعشي.

الجوهري، أحمد بن عبد العزيز، السقيفة وفدك، تحقيق: محمد هادي الأميني، مكتبة نينوى الحديثة.

الحاجي، جعفر عباس، جينيالوجية كينونة الإنسان الكامل، دار الولاء للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى.

الحر العاملي، وسائل الشيعة، مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، قم، 1404 هـ.

الراسخي، فروزان، المرأة من خلال المعرفة الشهودية، مجلّة المحجّة، العدد 12، معهد المعارف الحكمية، 2004 م.

السيد المرتضى، علي بن الحسين، الشافي في الإمامة، تحقيق: عبد الزهراء الحسيني، مؤسسة الصادق، طهران، الطبعة الأولى، 1410 هـ.

الصدوق، محمد بن علي، من لا يحضره الفقيه، دار الكتب الإسلامية، طهران.

الطباطبائي، محمدحسين، الميزان في تفسير القرآن، منشورات جماعة المدرّسين في الحوزة العلمية، قم.

الطبري، محمد، تاريخ الطبري، بيت الأفكار الدولية، 2009 م.

الطبري، محمد بن جرير، دلائل الامامة، مؤسّسة البعثة.

الطوسي، الفضل بن الحسن، مجمع البيان في تفسير القرآن، دار العلوم للتحقيق والنشر، بيروت.

العاملي، جعفر مرتضى، مأساة الزهراء، دار السيرة، بيروت، الطبعة الأولى، 1997 م.

العزيزي، خديجة، الأسس الفلسفية للفكر النسوي الغربي، بيسان للنشر والتوزيع والإعلام، لبنان، ط 1، 2005 م.

القيصري، محمد داوود، شرح فصوص الحكم، شركت انتشارات علمی و فرهنگی، ايران، 1375 ش.

المجلسي، محمدباقر، بحار الأنوار، وزارة الإرشاد الإسلامي، إيران، 2017 م.

المظفر، محمدرضا، المنطق، مطبعة النعمان، بغداد، 2016 م.

الميلاد، زكي، الإسلام والمرأة.. تجديد التفكير الديني في مسألة المرأة، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، 2008 م.

النشار، مصطفى، مكانة المرأة في فلسفة أفلاطون.. قراءة في محاورتي الجمهورية والقوانين، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة.

الهلالي، سليم بن قيس، كتاب سليم بن قيس، تحقيق: محمدباقر الأنصاري الزنجاني، مركز الأبحاث العقائدية.

اليعقوبي، أحمد، تاريخ اليعقوبي، دار صادر، بيروت، الطبعة السادسة، 1995 م.

الكليني، محمد بن يعقوب، أصول الكافي، دار المحجة البيضاء، بيروت.

جهانگيري، محسن، محيي الدين بن عربي، تعريب: عبد الرحمن العلوي، دار الهادي، بيروت، ط 1، 2003 م.

جوادي آملي، عبد الله، المرأة في مرآة الجلال والجمال، ترجمة: خليل العصامية، دار الإسراء للنشر، قم، 1428 هـ.

فضل الله، محمدحسين، المرأة والولاية السياسية والقضائية، مجلة فقه أهل البيت عليهم السلام.

محمد بن سباع، نقد الخطاب الذكوري عند بيار بورديو، ضمن مجموعة مقالات بعنوان "الفلسفة والنسوية"، إشراف وتحرير: علي عبود المحمداوي، منشورات ضفاف، بيروت، 2013 م.

مصباح اليزدي، محمدتقي، أسئلة وردود، دار التعارف للمطبوعات، لبنان، 2015 م.

مطهری، مرتضى، نظام حقوق المرأة في الإسلام، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، 2011 م.

مهريزي، مهدي، مسألة المرأة.. دراسات في تجديد الفكر الديني في قضية المرأة.